ولي الله

نجيب الكيلاني

كان الشيخ « وهدان » سيد الأتقياء في القرية بلا منازع ، وكان المثال الأرفع لكل الصالحين ، لحيته السوداء المهذبة والتي تتخللها الشعرات البيضاء تشع طهرا وقداسة ، نصف اغماضة مميزة توحي بأنه رجل يعيش في عالم آخر ، عالم الكرامات والملائكة والتسابيح ، واذا ماسار في دروب القرية سبقه أريج فواح يرتبط في ذهن النسوة والأطفال والرجال برائحة الجنة ، وليس هناك في القرية من لايعرف الرجل النحيل القصير الوسيم، والذي يقبل على الثرثرة أو الانشغال بأمور الدنيا عظيمها وحقيرها فيومه موزع بين الصلاة في المسجد ، وقراءة الأوراد فيما بين الصلوات ، والخلوة في البيت أو في أحد الاضرحة، وفي بعض الليال يحتشد حوله الدراويش ، ويستمعون الى الأغاني الصوفية العذبة ، أو يشتعلون حماسا وهم يتطوحون يمنة ويسرة ، وأماما وخلفا ، في حلقة الذكر والمعرفة .. هذا هو الشيخ وهدان شيخ الطريقة الصوفية.. والرجل الذي تتابعه العيون في تجلة ووقار ، وتنحنى له الجباه اذا ماسار ، وتتلقى الأسماع كلمته وكأنها أمر الهي لانقض فيه ولا ابرام ... لم يكن أحد بقادر على أن ينكر أنه فوق طبيعة البشر .

والغريب أن أولاده ـ الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة والعشرين ـ كانوا أبعد مايكونون عن التقى والصلاح ، بل كانوا مثالا سيئا في استهتارهم واثارتهم للمشاكل واهمالهم في تلقي العالم ، وكان الناس يضربون كفا بكف ويتمتمون : « لا حول ولا قوة الا بالله » يخلق من ظهر العالم فاسدا، ومن ظهر الفاسد عالما .. سبحانه » ، وعلى الرغم من رقة حاشية الشيخ ووداعته الا أنه كان يتعامل مع أبنائه في قسوة وحنق .

ولم يخدش انحراف أولاده شيئا من سمعة الشيخ ، ولا الثقة به ، بل ظل سرا كبيرا محوطا بالجلال والهيبة والوضاءة ، وظلت وفود العصاة تلجأ اليه طالبا الهداية ، سافحة دموع الندم ، تقبل يديه في شغف ، وتعفر جباهها بالتراب الذي يسير عليه ، وتتسابق الى الماء المتخلف عن وضوئه كي تتبرك به ، وتتداوى من السقام .

وصحت القرية ذات مساء على خبر غريب تفجر في أفقها كالقنبلة الشديدة الانفجار ، وشاع الخبر في كل زقاق

وشارع ، لكن الناس رفضوه رفضا صارما ، واعتبروه مجرد شائعة قذرة يلجأ اليها الفاسقون المنحلون • كي يطعنوا الشيخ فى سمعته ، وينالوا من قداسته التى أصبحت مضرب الأمثال •

وقال الشيخ ناصف مؤذن المسجد الكبير :

ـ « وماذا تنتظرون غير ذلك ؟ ! ألم يقولوا عن النبى قديما انه ساحر •• وكاهن •• ومجنون ؟ ! »

وقال حادى حلقات الذكر ، صاحب الصوت الرخيم ، والخمريات المؤثرة :

ـ « شيخنا يصلى فى الكعبة كل مساء •• انه من أهل الخطوة » •

فرد عليه « عبد المطلب » تاجر المخدرات بالقرية :

ـ « بل يصلى كل ليلة فى بيت « نعناعة » •• ذات العيون الزرقاء ••»

فقال الحاوى مشيحا بوجهه، مستغفرا الله :

ـ « أيها الفاسق أتتهم أسيادك ؟؟ اعرف انك تكرهه منذ أن أفتى بأن تعاطى المخدرات حرام •• كلكم أصحاب مصالح » •

فرد عبد المطلب ساخرا :

ـ « ألم تكن مصدقا لما أقول ، فلتنتظر تحت شجرة التوت أمام منزل « نعناعة » •• عند ذاك ستقطع الشك باليقين » •

وكانت نعناعة أرملة جميلة ، لها عينان زرقاوان فيهما جرأة وجمال ، ولنظراتها تحد قاتل ، وبشرتها البضة الشقراء التى لوحتها الشمس تشد اليها العيون الجائعة وغير الجائعة ، المعجبون بها كثيرون ، وعشرات الأقاصيص تروى عن عشاقها وزوارها والمتشوقين للزواج منها ، ولم يكن أحد يدرى لماذا لا تتزوج وهى تمتلك هذا الجمال كله ، وزعم البعض أنها وجدت الحياة هكذا أكثر فائدة وربحا من الزواج ، ما أشبهها بالاميرة المدللة التى يتسابق اليها الرجال بالهدايا والتضحيات ، ومن يفكر فى الاعتداء عليها ، أو التصدى لرغباتها لايستطيع الصمود فى الميدان طويلا ، فهناك متطوعون للانتقام منه ، واعطائه درسا قاسيا فى الادب والاخلاق ••

فكيف يفكر الشيخ وهدان فى الزواج من امرأة كهذه ؟؟

وكيف يفكر فى الزواج أصلا وهو القدوة والمثال ، وهو المتزوج صاحب العيال ؟!

الزواج فى مثل هذه الحالة ـ كما يعتقد أهل القرية ـ ضرب من المتعة والنزق ، أو رجس من عمل الشيطان لايليق بشيخ عظيم ، وولى من أولياء الله الصالحين ، كالشيخ وهدان ، ان التقاء الشيخ وهدان بنعناعة من رابع المستحيلات ، لقاء ملاك وشيطان ، والشيخ كان يخطب بالأمس ويقول : « الخبيثات للخبيثين » ولا يمكن أن يضم بيته احدى الخبيثات •

لهذا أنكر أهل القرية الأمر ، ونفوا الشائعة نفيا قاطعا ، وازدادوا ايمانا بالشيخ وهم يرونه يسير مرخى الجفنين، والمسبحة الطويلة فى يده ، وشفتاه لاتكفان عن التمتمة وترديد اسم الله

الحى القيـوم ، الواحد الأحد ، وكيف لايؤمنون به وهم يرون الدموع تنسكب فوق لحيته الطاهرة كلما تغنى الحادى مادحا السيدة زينب :

يا بنت الأطهار ٠٠ أنا المحتار ٠٠ داوينى

جـدك له معجزات ٠٠ مـلأت دواوينى

لـكن الواقع مـر أليم ، ومايرونه بعيونهم غير مايتوهمونه ٠٠

لقد رأوا الشيخ يتردد على بيت نعنانة كل مساء ٠

ماذا يفعلون ؟؟ أيكذبون عيونهم ؟؟ أيعتبرون مايرونه خداعا بصريا ؟!

وعادوا الى الشـيخ ناصف مؤذن المسجد ليستفتوه :

ـ « ماقولك ياعم الشيخ ناصف » ؟

فهز الشيخ رأسه شأن العالم ببواطن الأمور وقال :

ـ « أنتم ضعاف العقـول ، ضيقو التفكير » ٠

فرد عليه عبد المطلب تاجر المخدرات وهو يلوك شيئا فى فمه :

ـ « كيف ؟! تريد أن نفهم » ٠

ـ « ألم تسمعوا عن الصالحين الذين كانوا يجاهرون ببعض التصرفات المشينة ٠٠ كان يشربوا فى رمضان ، ويزوروا الأماكن المشبوهة ؟؟ أتدرون لماذا !؟ »

قهقه عبد المطلب ساخرا وقال :

ـ « لمـاذا ؟! »

ـ « كى يتهمهم الناس ، ويشـنعوا عليهم ، فيكتسبوا الثـواب ٠٠ انهم يريدون أن يكونوا الاتقياء الاخفياء ٠٠ وهناك طائفة من الواصلين سقط عنهم التكليف » ٠

قال عبد المطلب وهو يشعل سيجارة:

ـ « مامعنى سـقوط التـكليف يا فهامة ؟؟ »

ـ « الواصلون ليسـوا مثلنا ٠٠ فالفرائض وأوامر الشرع لأمثالنا ناقصى الايمان ٠٠ أما أمثال الشيخ وهدان فلهم حكم آخر ٠٠ لقد كشف الحجاب عن بصرهم وانتهى الأمر ٠٠ أما أنا وأنت وباقى الناس فمساكين ، نعاقر الخطايا والذنوب جحودا ونكرانا لفضل الله » ٠

قال عبد المطلب فى خبث :

ـ « والابن الاكبر للشيخ ؟؟ » ٠

ـ « ماله ؟؟ »

ـ « ألا يعلم أبوه أن ابنه من الواصلين أيضا ؟؟ »

ـ « ماذا تقصد ؟؟ »

ـ « أعنى أنه يعشق نعناعة ٠٠ وصل اليها قبل أبيه »

وسبه الشيخ ناصف ولعنه ، وصرخ فيـه :

ـ « اذهب يا عبـد المطلب ٠٠ أنت ملعون ٠٠ ملعون » ٠

ولم يخف على أحـد أن عبد المطلب قد اهتم بالشائعات التى تلاحق الشيخ ونعناعة ، وأخذ يتقصاها وينشرها فى كل مكان ، ولم يأل جهدا فى تنميقها

والمبالغة فيها ، بل انه استطاع الوصول لى نعناعة ، وفاتحها فى الموضوع بدهاء وخبث لا يقدر عليهما الا مثله ، وقالها:

ـ « آه ·· فتنت الشيخ يانعناعة » ·

فانفرجت شفتاها الورديتان عن ضحكة منغمة خليعة ، وقالت :

ـ « أنتم تظلموننا ·· انما ألتمس البركات » ·

ـ « كل ليلة ؟؟ »

ـ « كل ليلة يا عبد المطلب » ·

فتنهد فى لؤم وقال :

ـ « ماكنت أعتقد أن الأولياء يعشقون » ·

ـ « لكن الله جميل يحب الجمال ·· والشيخ شريف طاهر حتى فى عشقه »

ـ « لقد فاحت رائحة الفضيحة » ·

فردت وهى تغمز باحدى عينيها :

ـ « واذا كنا سنتزوج ؟؟ »

ـ « تتزوجان ؟؟ » ·

ـ « فى الحلال يا عبد المطلب ؟؟ »

ـ « هذا ألعن » ·

فقالت وهى تهم واقفة :

ـ « أعرف أن وقتك ثمين ، والزبائن ينتظرونك ·· مع السلامة » ·

واصطدم عبد المطلب لدى باب البيت بابن الشيخ ، كان الشاب مكفهر الوجه، تشتعل نظراته حقدا ، واندفع كالسهم، وعلى وجه سيما الجنون ، ولمحته نعناعة وهو يدخل ، فهتفت به :

ـ « لا تنس أن تغلق الباب » ·

فصفقه فى غيظ ، ومضى نحوها مكورا قبضتيه ، فأسرعت قائلة :

ـ « أهلا ·· حبيبى » ·

فامسك بعضدها فى غلظة وهدر :

ـ « أيتها المجرمة » ·

فشهقت مستغربة ، دون أن تبدو عليها أية بادرة من خوف وقالت :

ـ « حبيبتك مجرمة ؟؟ »

ـ « كفى خداعا » ·

ـ « ماذا جرى ؟؟ »

ـ « أتتجاهلين ؟؟ اننى أعرفك ·· وأفهم من هى نعناعة اللعوب ، لكن ثقى أننى قادر على أن أذبحك كما تذبح الفرخة » ·

فقالت فى هدوء :

ـ « يجب أن ترتاح قليلا ·· انت ثائر الأعصاب ولن تأتى أى تصرف سليم وأنت على هذه الحالة » ·

ولم يكف أحمد ـ وهذا اسمه ـ عن الحديث ، وأخذ يروى لها كيف أن أباه الشيخ وهدان أخبرهم البارحة أنه ينتوى الزواج منها ·· من نعناعة ، وأخذ أحمد يعنف فى لومها ، كيف تجارى الشيخ الكبير فى هذا العبث ، وكيف توافقه على أفكاره تلك ، وهل نسيت أن فى هذا الزواج اهدارا لكرامة الشيخ وسمعته ، وتهديدا لمركز الاسرة ومنزلتها بين الاسر فى القرية وفى القرى المجاورة ؟؟ ·· وأخيرا ·· هل نسيت أنها اتفقت مع أحمد على الزواج ، وانهما

سيتزوجان سواء أوافق الشيخ أم لم يوافق ؟؟

واقتربت نعناعة منه ، والصقت جسدها بجسده ، وهمست فى أذنه بكلمات ناعمة ، كانت أنفاسها تبعث الدفء فى قلبه ، والخدر فى جسده كله ، وهم بأن يضمها اليه ، لكنها ثبت بعيدا عنه فى خفة وهى تقول :

ـ « وماذا أفعل ؟؟ ان أباك رجل لا يقال له « لا » .. الجميع هنا يطأطئون له الرءوس ، وأوامره للطاعة والتنفيذ ، وهل كنت أحلم برجل له مثل شرف مكانته ، وقداسة سلوكه ؟! ماذا كنت تفعل لو كنت مكانى ياأحمد ؟

ورماها أحمد بنظرة نارية ، ثم هب واقفا واندفع اليها قائلا :

ـ « أفهم لعبتك .. مارأيتك مرة تصدين طامعا .. دائما تتلذذين برؤية الرجال وهم يركعون أو يتصارعون من حولك ، لكن أبى لن يركع .. أبى لن يركع ، ولن يكون لعبة بين يديك .. أتفهمين ؟؟ »

قالت نافرة :

ـ « لتقل له هذا الكلام » .

فرد بعبارة كانت كاللطمة القاسية :

ـ « أبى أشرف من أن يحبك » .

فقالت فى سخرية :

ـ « وأنت يا نور العين » .

ـ « أنا غير أبى .. أنا كلب مثلك .. هذا نصيبى » .

ـ « وماذا تنوى أن تفعل ؟؟ »

ـ « سنتزوج غدا » .

فاقتربت منه ، وطوقته بذراعيها ، ولم تمانع حينما هم بتقبيلها ،وهمست:

ـ « هذا هو الحل الوحيد » .

لم يكن أحمد مرتاحا لهذا التصرف ، ولم يكن يشعر فى قرارة نفسه بالسعادة الحقيقية التى كان يحلم بها قبل ذلك ، ان ماحدث بينها وبين أبيه من علاقة طارئة ، وماصاحب هذه العلاقة من شائعات وأقاويل ومبالغات كاذبة ، قد أتعسه ، وملأ صدره بالمرارة ، ولم يكن هذا الزواج المفاجىء بالذى سيرضى والده، ومع ذلك فقد وجد نفسه مضطرا لأن يفكر فى الخطوة الأخيرة .

فى صبيحة أحد أيام الصيف المشرقة ، انبعثت من دار نعناعة زغرودة عالية ، وسرى النبأ فى كل مكان .. لقد تزوجت نعناعة من أحمد وهدان ابن الشيخ ، وأحدث النبأ هزة عنيفة ، وصدى بعيدا ، وخرج الشيخ ناصف مؤذن المسجد الى الناس ، وكان بينهم عبد المطلب تاجر المخدرات :

ـ « ألم أقل لكم ؟؟ دائما تسيئون الظنون بالناس الأطهار الشرفاء .. لم يعشق الشيخ نعناعة وانما أراد هدايتها الى الطريق المستقيم حتى يزوجها من ابنه .. هل رأيتم نبلا أعظم من ذلك » ؟

فرد عبد المطلب ساخرا :

ـ « ولم لا تقول أن المنافسة كانت حادة بين الشيخ وابنه ، وكل واحد تمناها لنفسه ؟؟ »

فصاح الشيخ ناصف غاضبا :

ـ « انظروا هذا الشيطان .. انه متبجح لايرعى حق أسياده ، ولايصون كرامتهم » .

ـ « لكن نعناعة قالت ذلك.. والناس كانوا يعرفون .. ثم ان الشيخ بشر مثلنا » .

فقال الشيخ ناصف وهو يلوح بيده:

ـ « ردوا أيها الناس .. قولوا لعبد المطلب الفاجر الحقيقة » .

فتحولوا نحو عبد المطلب ، وأخذوا يتسابقون الى صب اللعنة عليه ، وامتدت أيديهم وأرجلهم بالصفع والركل ، وأخذ عبد المطلب يحاول الهرب جاهدا ، وقد وضع كفيه على وجهه ورأسه ليتقى الضربات ، وابتسم الشيخ ناصف فى سعادة وتمتم :

ـ « هذا جزاء الكاذبين » .

أما الشيخ وهدان فقد لزم داره ، لم يعد يراه أحد يمضى فى الطريق تشع منه التقوى والوضاءة ، ولم يعد يتوسط حلقة الذكر ، ولم تعد تلمع دموعه فوق لحيته الطاهرة وهو يستمع الى أغانى المتصوفين ، وألزمه المرض الفراش لثلاثة شهور .. ولم يغادر بيته الا يوم وفاته .. ياله من يوم .. كانت الطرق مزروعة بآلاف البشر ، ودقات الطبول تصم الآذان ، ورجال الطريق يهتفون باسم الله.. والاعلام الخضراء والحمراء ، والبيارق العالية تمتد الى بعيد .. والموكب يبتدأ من القرية ولا ينتهى الا عند القبة البيضاء المشرقة التى سيدفن تحتها الشيخ وهدان .. ولى الله .